د. أسعد عبد الرحمن

عودة العرب اليهود : المسأله والحل

قدمت حركة المقاومة الفلسطينية ، في منتصف العام ١٩٧٥ ، مذكرة الى الملوك والرؤساء العرب اقترحت عليهم فيها تبني خطة متكاملة لتنظيم الهجره اليهودية المعاكسه من اسرائيل . وقد انطلقت الخطة من فرضية مؤداها أن اليهود الذين أقاموا في البلاد العربية تعرضوا لمؤامرة صهيونية تضمنت الترغيب والتهديد لحثهم على الهجرة الى فلسطين . وقد تواكب ذلك « مع قصر نظر لدى الانظمة العربيه مما حمل هؤلاء اليهود على الهجرة الى اسرائيل .. (حيث) وقعوا بين نارين : فقد خضعوا أولا لتمييز عنصري داخل اسرائيل ، وقلقوا ، ثانيا ، الامل بالعثور على ملجأ آخر لهم » (١) . ولذلك جاء اقتراح المقاومة الفلسطينية داعيا الدول العربية الى اعادة « الثقة الى نفوس اليهود العرب في اسرائيل ، وتنظيم حملة لاعادة تهجيرهم من اسرائيل واعادتهم الى الدول العربية التي نزحوا منها » (٢) .

ومنذئذ ، أصبحت المسألة مطروحة عمليا وواقعيا ، اذ بادرت بعض الحكومات العربية (وبالذات المغرب والسودان) الى تبني اقتراح المقاومة ودعوة اليهود العرب الى العودة ، في حين عكفت حكومات اخرى على دراسة الموضوع جديا تمهيدا لاتخاذ الاجراءات اللازمة (٣) . كما ان واحدا من قادة المقاومة ، على الاقل ، قام بجهود مكثفة تمثلت في وضع دراسة لبدء الحوار حول شعار اعادة العرب اليهود الى مواطنهم الاصلية (٤) . كما تلا ذلك عقد ندوات خاصة وعامة (٥) ، وتشكيل لجان متابعة (٦) هدفها اغناء الحوار واتخاذ خطوات عملية لترجمة الشعار ، ولو جزئيا ، وربط عربة « اعادة اليهود العرب » بقطار النضال الفلسطيني والعربي المتجه نحو ازالة الكيان السياسي الصهيوني من الاراضي العربية المحتلة . واخيرا ، قامت صحيفة واحدة ، على الاقل ، بفتح المجال أمام حوار علني على صفحاتها ، شارك فيه عدد من المفكرين والكتاب العرب طوال اكثر من شهر كامل (٧) .

ولقد كان طبيعيا ان يحتدم النقاش وينقسم المتحاورون ، من حيث الشكل ، بين مؤيد متحمس أو متحفظ ومعارض رافض بشدة او باعتدال لفكرة « اعادة اليهود العرب » (٨) . كذلك ، انقسم المتحاورون ، من حيث المضمون ، الى مجموعتين : واحدة تقبل بالفكرة لاعتبارات مبدئية و / او عملية ، ومجموعة اخرى ترفض الفكرة ذاتها اما لاسباب مبدئية و / او عملية ، وعلى الرغم من ان النقاش عانى ، بحكم احتدامه ، من الامراض المعتادة في كل حوار ساخن ، فانه ـ بالتأكيد ـ أسهم الى حد بعيد في تسليط الضوء على الفكرة وازالة كثير من الظلال التي احاطت بها وحجبت بعض جوانبها . وكي لا يكون كل ذلك الجهد الذي بذله الجميع لاثراء الحوار طفرة سرعان ما تبخرت ، ومن اجل دفع الحوار خطوة جديدة الى الامام ، لا بد من محاولة جديدة لتسجيل الحقائق بعد أن زال عنها الضباب الذي نشأ في الاصل من ملامسة الجزء العاطفي من النقاش للوقائع الباردة . فما هي أولا مسوغات قبول الفكرة الداعية الى عودة اليهود العرب الى بلدانهم السابقة ، وما هي ثانيا أبرز الذرائع التي أتى بها كل من عارض الفكرة ، وما هي ثالثا قيمة تلك الذرائع ، وما هو رابعا وأخيرا الاطار السليم لبدء ترجمة ذلك الشعار الترجمة العملية المطلوبة .

أ ـ مسوّغات القبول :

لا يخفى على أحد ان الهجرة اليهودية الى اسرائيل هي على رأس قائمة الاولويات الاسرائيلية والصهيونية . بل ان الصهيونية ليست ، في جوهرها ، الا هجرة اليهود الى فلسطين لاقامة وطن قومي لهم دون أن تقيد حركتهم في ذلك الاتجاه حدود معلنة (٩) . كما ان الهجرة اليهودية الى فلسطين تشكل بالنسبة لاسرائيل ـ علاوة على كونها الفكرة المركزية في الايديولوجية الصهيونية ـ المصدر الافضل لتأمين الامان المعنوي لليهود والامن الفعلي المادي لاسرائيل . وهذا يفسر تشجيع اسرائيل يهود العالم على الهجرة بدءا بما اعلنته في « وثيقة الاستقلال » في العام ١٩٤٨ ، ومرورا « بقانون العودة » للعام ١٩٥٢ ، وانتهاء « بقانون الجنسية » للعام ١٩٥٢ وما تلاه من انظمة واجراءات في الاعوام التالية (١١) . كما ان ذلك يفسر الاجماع على موضوع الهجرة من قبل جميع الاحزاب الاسرائيلية بما في ذلك حركة « سيج » (اليسار الاسرائيلي الجديد) ، والفهود السود ، وحتى منظمتي ماتزين وراكاح المناوئتين للصهيونية (١٢) .

وعلى الرغم من عدم نجاح الحركة الصهيونية واسرائيل في جهود تجميع يهود العالم ، فقد ازداد عدد سكان « اسرائيل » اليهود من ٦٥٠ الفا في العام ١٩٤٨ الى ما تجاوز مليونين ونصفا من اصل ما يقارب ١٦ مليونا من اليهود في العالم (١٣) . وغني عن الذكر ان تلك الزيادة اضافت الكثير الى قوة الدولة الصهيونية التي لم تكن ، مع ذلك ، خلوا من المشاكل الاساسية . ولعل أبرز هذه المشاكل : انقسام المجتمع عموديا بين طائفتي الاشكنازيم والسفارديم ، وما رافق ذلك من توترات وازمات مجتمعية (عنصرية ، وطبقية ، وثقافية ، وسياسية) ، وتغير سمة التكوين البشري الطائفي الاسرائيلي من مجتمع « غربي » عرفيا الى مجتمع « شرقي » ، اذ انخفضت نسبة الاشكنازيم من ٩٠ ٪ في العام ١٩٤٨ الى اقل من ٤٠ ٪ الان (١٤) . بل ان الاهم من ذلك كله، نشوء ما يمكن تسميته « بتحدي الهجرة » (١٥) أمام اسرائيل وبخاصة في ظل تحول محصلة الهجرة الى الحدود السلبية وتغلب ارقام الهجرة المعاكسة من اسرائيل على ارقام الهجرة اليها مع العام ١٩٧٥ (١٦) .

وكي لا تكون « مؤشرات ١٩٧٥ » هذه مسألة عابرة (كما كان عليه

الحال في مؤشرات ١٩٥٣) ، ومن أجل أن يستديم تحدي الهجرة في وجه اسرائيل ، وفي سبيل تفسيخ المجتمع الصهيوني الاسرائيلي تكتيكيا واستراتيجيا وصولا الى تحقيق الاهداف الفلسطينية والعربية الخاصة باقامة الدولة العلمانية الفلسطينيه تمهيدا لقيام الدولة العربيه العلمانيه الديمقراطية في جميع أرجاء الوطن العربي ، لا بد من تبني مشروع دعوة اليهود العرب للعودة الى أوطانهم الاصلية كحلقة من سلسلة المشاريع القتالية العسكرية والسياسية والاقتصادية التي يقتضيها تحرير العرب لارضهم وتحقيق أهدافهم الاستراتيجية الاخرى.

ب ـ ذرائع الرفض (١٨) :

أما أبرز الذرائع التي يطرحها معارضو مشروع دعوة العرب اليهود للعودة الى بلدانهم الاصلية فتتلخص بالآتية :

١ ـ تنطوي الدعوة على سحب البساط من تحت أقدام المشروع الفلسطيني الهادف الى اقامة الدولة الديمقراطية العلمانيه في فلسطين . ذلك أنه اما ان نلتزم بذلك المشروع فنبقي اليهود حيث هم لكي تتشكل منهم الدولة الديمقراطية العلمانية العتيدة ، أو نسحبهم من هناك فينتفي بذلك الاساس البشري اللازم لاقامة مثل تلك الدولة.

٢ ـ سيؤدي تنفيذ فكرة عودة اليهود العرب الى تفريغ فلسطين المحتلة من اليهود الشرقيين ، مخففا بذلك من حدة أزمة التناقض بينهم وبين اليهود الغربيين من جهة ، ومفسحا المجال أمام استجلاب موجات هجرة جديدة من هؤلاء الاخيرين من جهة ثانية .

٣ ـ سيكون الاتيان باليهود العرب الى الدول العربية كمن جاء « بالدب الى كرمه » . ذلك ان أحضار يهود تشبعوا بالفكر الصهيوني طوال اكثر من ربع قرن ، سيجعل منهم طوابير خامسه وعملاء وجواسيس جاهزين للعمل لصالح اسرائيل وبخاصة وانهم ـ يضيف البعض ـ سيكونون عرضة في البلاد العربية للتمييز القومي والديني ضدهم . ناهيك عن انهم سيبتلعون ، بما عرف عنهم من حذاقة في أعمال التجارة ، اقتصاد البلدان العربية التي يفدون اليها وسيشربون النفط العربي حتى آخر قطرة .

٤ ـ ستقتصر عودة اليهود ـ ان عادوا ـ على الكبار في السن الذين لا يزالون يحملون معهم ارتباطهم بالاوطان التي نشأوا فيها . وعندئذ نكون قد خففنا عن اسرائيل عبئهم أولا ، وارهقنا انفسنا بهم ثانيا ، دون ان نفرغ اسرائيل من عنصرها البشري الذي تحشده لقتالنا ثالثا .

٥ ـ اليهود ـ في الدين والتاريخ ـ أشرار بطبيعتهم ، ولذلك سيكونون دوما أدوات خراب و / او افساد . فلم نأتي بالطاعون الى مقر دارنا ؟

٦ ـ المسالة غير مطروحة فعليا وعمليا .

جـ ـ قيمة الذرائع :

تنطوي الذرائع المساقة أعلاه على ثغرتين أساسيتين :

فبعضها ، أولا ، ذاتي الى درجة السفم . وما كان ليصير فكرة ما أن تكون ذاتية طالما ان ذلك ينطبق على الواقع الموضوعي او ـ على الاقل ـ لا يجانبه كثيرا . وقد نتج عن المنحى الذاتي المفرط الذي يتبدى في كثير من الذرائع المعطاة أعلاه ، عدة نواقص . فالذاتية تلك ، دفعت البعض الى خلق « حقائقهم » على حساب الحقائق القائمة و / او تلوين تفسيراتهم للحقائق بالوانهم الشخصية الذاتية . كذلك ، قادتهم ذاتيتهم ـ في حالات أخرى ـ الى لوي أذرع الحقائق و / او جعلها مطلقة تنطبق على كل زمان ومكان .

فالبعض بذاتيته الشوفينية او الفاشية ، او ربما بكلتيهما ، قرر ـ هكذا ـ بأن اليهود بطبيعتهم أدوات شر وافساد وانهم جبلوا على الخداع واللؤم .. وما الى ذلك من نعوت تدين صاحبها اكثر مما تسعفه . وغني عن الذكر ، في هذا المجال ، ان مثل هذه « الحجة » لا تستند الى أي أساس علمي . ذلك انه ـ علميا وتاريخيا ـ ليس هناك من شعب منفوق أو مختار (بالمعنى التنازي أو بالمعنى الذي ينادي به كاتوليك الكهان اليهود او الصهاينة) ، تماما مثلما ليس هناك شعب جبان أو لئيم أو ما الى هنالك من صفات . ولنذكر في هذا الصدد ما روجه الاستعمار الفرنسي من الطبائع المخزية التي اراد حينذاك الصاقها عشوائيا بالشعب الفيتنامي ، وكيف ان الحقائق عادت فاكدت نفسها وقامت بدفن الاصباغات الذاتية الفرنسية . وكذلك الحال مع الشعوب الصينية ، والكوبية ، والعربية ، وغيرها من الشعوب التي تعرضت ـ حديثا بالمقياس التاريخي ـ الى فيض من مغالطات لم تدم الا في خلايا العقول الفاشية .

ولعل الاخطر من هذا كله ، كون البعض قد قام ـ هكذا ـ بتعيين نفسه فقيها في الدين الاسلامي وضليعا بتفاسيره ، فاجتزأ من الآيات ما حلا له ، ناسيا (أو على الارجح متناسيا) ان اليهود من أهل الكتاب وان ما كان من أمر بعضهم ، في مكان وزمان معينين ، لا ينطبق عليهم جميعا وفي كل الاماكن والازمان .

كما أن اقرار البعض باغماض عينيه عن الحقائق القائمة والتقرير ـ هكذا ـ بأن المسالة غير مطروحة علميا وعمليا ، أمر فيه الكثير من الذاتية . ذلك ان المسالة مطروحة فلسطينيا من خلال ما عرضناه في مقدمة هذه الدراسة . وهي ، كذلك ، مطروحة عربيا بدليل ان بعض الدول العربية (وبالذات العراق ، والسودان ، والمغرب ، وتونس) أعلنت قرار ترحيبها بعودة اليهود العرب ، وسنت قوانين خاصة بهدف تشجيع عودتهم . كما ان المسالة مطروحة اسرائيليا من خلال ما ترويه الارقام من ازدياد في حجم الهجرة المعاكسة ومن خلال ما أعلنته المصادر الاسرائيلية (وبالذات مصادر الفهود السود) مؤخرا عن بدء عودة يهود المغرب الى وطنهم الاصلي (١٩) .

واخيرا ، يطالعنا من ثغرة الاداء و « الحقائق » الذاتية المشار اليها أعلاه ادعاء يقول بأنه لن يغادر اسرائيل الا كبار السن و / أو ان من يغادرها هو بالضرورة متشبع بالافكار الصهيونية . وفيما يتعلق بالشق الاول من الادعاء ، لا يجد المرء أي أساس علمي يدعمه . بل ان حديث الوقائع ينسف ذلك الادعاء من أساسه (٢٠) . وفيما يتعلق بأولئك الذين يسوقون « حجة » التشبع بالافكار الصهيونية، لا يعرفون ـ فيما يبدو ـ معنى الصهيونية التي هي ـ او قبل كل شيء ـ العودة و / أو السعي من أجل دعم عودة اليهود الى صهيون . ثم ان من عاش في اسرائيل وغادرها فرقا لا يتوقع له ان يكون داعية للفكر والعمل الصهيونيين أو مؤمنا بهما .

أما الثغرة الاساسية الثانية التي تنطوي عليها الذرائع المقدمة من رافضي فكرة عودة اليهود العرب الى أوطانهم ، فتكمن في خلطهم بين سلامة المبدأ وصعوبة التطبيق . فرفض فكرة ما لانها تنطوي على تكاليف أو صعوبات فحسب ، أمر لا يحتاج الخطأ فيه الى أية ايضاحات . ذلك أن الصعوبات او التكاليف واردة في كل مهمة كبرت أو صغرت . والمهم هو ان لا تكون التكلفة اكثر من قيمة الهدف المنوي تحقيقه . وفيما يخص بموضوعنا ، لا يختلف اثنان على ان هدف ازالة الكيان السياسي لاسرائيل لا يتقدم عليه أي اعتبار وتهون من أجله كل التكاليف بشرية كانت أم مالية . وليس في مثل هذا القول أية عاطفية ـ كما كان يبدو لاول وهلة . ذلك ان أية حسابات علمية للارباح والخسائر في عملية اقامة الدولة الديمقراطية العلمانية على أرض فلسطين لا بد وان ترجح ـ بالقطع ـ كفة الارباح .

ولعل اضعف الذرائع قاطبة هي تلك القائلة بأن من يعود من اليهود العرب سيكونون من الجواسيس و / أو طوابير خامسة . وبدون

مناقشة للبعد الفاشي ـ الشوفيني الذي قد يتضمنه مثل هذا القول، نقول : ربما يكون ذلك الافتراض صحيحا جزئيا . أي ربما يكون البعض اما عائدا في مهمة تجسسية أو جاهزا أكثر من غيره ليكون طـــابورا خامسا . ولكن الجواب على هذه « المعضلة » بسيط اذ انه لا يستحق اكثر من سؤال نسأله : ألم تثبت أجهزة الاستخبارات والمباحث الداخلية العربية جدارتها اكثر من اية أجهزة في هذا الوطن ؟ وعليه فان مثـل ذلك التخوف المضخم يتقلص ـ عند التفحص والتدقيق ـ الى حجمه الحقيقي فيغدو مجرد مسألة فنية (٢١) .

د ـ حيثيات الخطة ومعالم تنفيذها :

لا بد ، في البداية ، من استعراض العوامل التي طالما ساعدت على ازدياد هجرة اليهود الى فلسطين المحتلة قبل وبعد العام ١٩٤٨ ، والعوامل التي طالما ساعدت على اضعاف تلك الهجرة وتحويلها أحيانا الى هجرة معاكسة من اسرائيل الى الخارج ، وتوظيف نتائج هـــذا الاستعراض التحليلي لرسم الخطة العربية لمواجهة .

أما العوامل المساعدة على هجرة اليهود الى فلسطين واضعاف الهجرة المعاكسة منها فتتلخص فيما يلي :

أولا ـ اللاسامية التاريخية (ما قبل العام ١٩٣٩) وبخاصه في دول أوروبا واستثمار الحركة الصهيونية لها (٢٢) .

ثانيا ـ ظروف مقدمات الحرب العالمية الثانية ونهايتها (الاستفاده من يهود المعسكرات فـــي أوروبا الغربيـــــة ، ومن يهود اوروبا الشرقية) (٢٣) .

ثالثا ـ ظروف تقسيم فلسطين في العام ١٩٤٧ ، والحرب العربية الاسرائيلية الاولى في العام ١٩٤٨ وما رافقها من عواطف وردود فعل قومية متسرعه معاديه لليهود (سياسيا واقتصاديا) فـــي البـــلاد العربية (٢٤) .

رابعا ـ الانتعاش الاقتصادي في اسرائيل في الاعوام (١٩٥٥ ـ ١٩٥٧) في أعقاب تبلور اثر التعويضـــات الالمانية (الرسميـــة والشخصية) بدءا من العـام ١٩٥٣ . كذلك الانتعاش الاقتصادي في الفترة (١٩٦١ ـ ١٩٦٤) (٢٥) .

خامسا ـ النصر العسكري الاسرائيلي المـذهل في العام ١٩٦٧ وما خلقه من مشاعر قوية وتضامن ونقة في وسط يهود العالم (٢٦) . تماما مثلما كانت الصهيونية قد استخدمت ، في الماضي ، ولا تزال تستخدم ، تكتيك « التهويل بالخطر الخارجي » لاخفاء (٢٧) التناقضات والوجه البشع لاسرائيل ولشحن يهـود العالم بالتعاطف مـع اسرائيل والتحرك باتجاه انقاذها .

سادسا ـ التحرك السياسي والاعـــلامي الصهيوني المكثف ، وبخاصة منذ العام ١٩٦٧ ، ضد الاتحاد السوفياتي لاحراجه والضغط عليه لتشجيع هجرة اليهود السوفيات الى اسرائيل . وقد سرّع انحياز الاتحاد السوفياتي للعرب سياسيا وعسكريا منذ العام ١٩٦٧ في حدوث الطلاق السوفياتي ـ الاسرائيلي ، وأطلاق يد الحركة الصهيونية في معاداة الاتحاد السوفياتي الذي كان لتلك الحركة معه ـ علاوة على العداء التابع من كونها حركة استعمارية ـ ثارات قديمة (٢٨) . وهذه الاخيرة ناجمة عن الموقف الصلب الذي وقفته روسيا منذ الثورة البلشفية ، اذ لم تسمح السلطات السوفياتية الا بهجرة (١٥،٨٠٠) يهـــودي في الفترة (١٩١٩ ـ ١٩٢٣) ، وما يعـــادلهم في السنوات (١٩٢٤ ـ ١٩٣١) ، وبهجرة عشرة أشخاص فقط في الاربعينات والخمسينات ، وبهجرة خمسة أشخاص مسنين طوال الفترة ما بين ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨ ونهاية العام ١٩٥١ ، في حين تم تسمح بهجرة أحد فيما بين ١٩٥٢ ومنتصف ١٩٥٣ ، وهجرة ١٢٥ شخصا فقط طوال الفتـــرة ما بين (تموز ١٩٥٣ ـ وايلول ١٩٥٥) ، وهجرة ١٤،١٢٠ في العـــام ١٩٥٨ ، وهجرة مئتي يهودي في العام ١٩٦٣ (٢٩) . هذا وتسعـــى اسرائيل الى تهجير يهود الاتحاد السوفياتي اليها لكونهم لا يعيـــدون اسرائيل ماليا ، ولا يشكـــلون قوة سياسية ضاغطـــة على القيادة السوفياتية (كما هو الحال في الولايات المتحدة وغيرها) ، ولكونهم « كوادر علميه » تستفيد منها اسرائيل ، علاوة على الرغبة فـــي استخدامهم لتعديل التوازن البشري الطائفي في اسرائيـــل وذلك بترجيحهم لكفة الاشكنازيم (٣٠) .

سابعا ـ الايديولوجيات والمواقف السوفينية العربية ، الرسمية وغير الرسمية ، طوال سنوات عديدة من جهة ، وتقصير الاعلام العربي التقدمي الجديد ازاء اليهود والصهيونيين منهم على نحو خاص ، من جهة ثانية . ولعل هذا هو السبب الاهم في ابقاء « حركة الفهـــود السود » ، مثلا ، غير مستعدة « للمشاركة في الكفاح العربي ضـد الصهيونيه » وكونهم غير مهتمين « سوى في الحصول على قطعة من الجبنة الصهيونية في اسرائيل » (٣١) . كما ان ذلك كله ، اضافه الى غياب برنامج ايجابي عربي لاعادة توطين اليهود العرب الاسرائيليين في الوطن العربي ، لعب دورا بارزا في « اغلاق » عقل اليهـــودي العربي في اسرائيل ازاء احتمالات عودته الى موطنه الاصلي ، وبالتالي بقائه في الدولة الصهيونية طالما انه غير قادر لاسباب ثقافية ونفسية ومالية على الهجرة الى الدول الغربية (٣٢) .

اما العوامل التي اضعفت الهجرة الى اسرائيل او ساعدت على الهجرة المعاكسة منها فنلخص في التالية :

أولا ـ المقاومه الرسمية والشعبيه العربية المتمثله في المقاطعة الاقتصادية والرفض السياسي وبالذات القتال العسكري وبخاصة منذ ظهور حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة بدءا من العام ١٩٦٥ وما اعقب ذلك من معارك كان ابرزها ما وقع في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ .

ثانيا ـ نضوب ما عرف باسم « مناطق الضيق » (اوروبـــا الشرقية ، العالم العربي) نتيجة هجرة غالبية يهود هذه المنـــاطق الى اسرائيل في أعقاب قيام الدولة الصهيونية (٣٣) .

ثالثا ـ اغراءات ما عرف باسم « مناطق الرخاء » (اميركـــا الشمالية والجنوبية ، اوروبا الغربيـــة ، اوستراليا ، افريقيـــا الجنوبية) لليهود للبقـــاء فيها أو الهجرة اليهـــا مـن اسرائيل وغيرها (٣٤) .

رابعا ـ الازمات الاقتصادية في اسرائيل ، وبخاصة في العامين (١٩٥٢ ـ ١٩٥٤) ، وكذلك في العامين (١٩٦٥ ـ ١٩٦٧) . وقـد انخفض مستوى الهجرة في هاتين الفترتين بشكل ملحوظ وازدادت فيها الهجرة المعاكسة من اسرائيل (٣٥) .

خامسا ـ عدم صهيونية العديد من اليهود وتفضيلهم لمستقبلهم الذاتي . ومن الادلة البارزة على ذلك ، انه عندما استقلت الجزائر لم يهاجر الى اسرائيل الا ٧ ٪ من مجموع ١١٠ آلاف من اليهـــود الجزائريين . وقد فضل الباقون السفر الى فرنسا والاقامة فيها (٣٦) .

سادسا ـ القيود السوفياتية على هجرة اليهود الى اسرائيل (٣٧) . ولهذا العامل أهمية بالغة ، خاصة اذا تذكرنا ان عدد اليهود فـــي الاتحاد السوفياتي يكاد يعادل عدد يهود اسرائيل (٣٨) . وفي هـذا المجال ، لا تلجأ الدولة السوفياتية الى الاجراءات السلبية بمنـــع اليهود من المغادرة فحسب ، بل انها بالتمييز (المقصود وغير المقصود) لصالح سكانها من اليهود تجعلهم غير راغبين في مغادرة الاتحـــاد السوفياتي على الرغم من الضغوط الصهيونية والاسرائيلية الهائلة عليهم. والدليل على حسن المعاملة هذه (بل ربما التفضيل) أن يهود الاتحاد السوفياتي الذين لا يشكلون الا ١،٥ ٪ من مجموع السكان يشكلون ١٤،٧ ٪ من الاطباء ، ١٤ ٪ من الكتاب ، و ١٠،٤ ٪ من المحامين، و ٣٢ ٪ من الملحنين والمؤلفين ، و ١٣ ٪ من الفنانين فـــي الدولـة السوفياتية (٣٩) .

سابعا ـ المشاكل غير الاقتصادية داخل اسرائيل . وتلخص هذه في مشاكل الاستيعاب والتكيف وما يرافقها من احساس شديد بالغربة والعزلة ، والروتين الحكومي المعقد والمهل ، والامبارات التي تقدم للمهاجرين الجدد والتي خلقت ردود فعل عدائية في وسط المهاجرين القدامى الذين أصبحوا يجاهرون بعدائهم لكل مهجر جديد بحيث يسرّعون في مغادرته البلاد ان حضر ، أو « اقناعه » بالاحجام عن الحضور ان كان يفكر في ذلك (٤٠) . واخيرا ، وليس آخرا ، مشكلة التمييز العنصري الحاد داخل المجتمع الاسرائيلي وتحول الاغلبية اليهودية الى مواطنين من الدرجة الثانية وما نتج عن ذلك من توترات وحركات رفض وتمرد (٤١) .

ثامنا ـ مواقف بعض الدول العربية ازاء هجرة مواطنيها من اليهود الى اسرائيل وتشجيعهم ، نفسيا وماديا ، على البقاء في البلدان العربية المعنية . ولعل الامثلة البارزة في هذا المجال : موقف لبنان منذ العام ١٩٤٨ وكل من المغرب وتونس منذ العام ١٩٥٨ (٤٢) .

اذن ، وبعد أن استعرضنا العوامل التي تساعد على هجرة اليهود الى اسرائيل ، ودرسنا العوامل التي تقلل من الهجرة اليها أو التي تزيد الهجرة منها ، ما هي معالم الخطة العربية التي تزيد من مفاهيم « تحدي الهجرة » الذي يواجه اسرائيل ، وتساعد ، في الوقت ذاته، على تفسيخ المجتمع الصهيوني فيها ، وتعزز ، بالتالي ، حركة الثورة الفلسطينية والعربية ازاء العدو الصهيوني ؟

أولا ـ نشر وترسيخ الفكر التقدمي المضاد للفكر الفاشي والتسوفيني الذي لا يميز ضد اليهود فحسب ، بل وضد الاقليات الاخرى بشكل عام .

ثانيا ـ تأكيد الدول العربية رسميا ، وعلى أعلى المستويات وبأكثف زخم ممكن ، الموقف المبدئي التاريخي للامة العربية المتسامح مع الاقليات بشكل عام ، ومع الطائفة اليهودية بشكل خاص ، وارفاق ذلك بخطوات عملية جذرية تعزز اوضاع ما تبقى من اليهود في البلدان العربية . ولعل في موقف الثورة الفلسطينية من يهود لبنان اثناء الحرب الاهلية اللبنانية خير مرشد في هذا المجال ، ناهيك عن الموقف العراقي ، في دستور العام ١٩٢٥ ، والذي كان ساوى بين المواطنين العراقيين يهودا وغير يهود ، في الحقوق والواجبات ، وذلك قبل أن تلغي حكومة نوري السعيد ذلك النص عمليا في الاجراءات التعسفية التي أقدمت عليها في العام ١٩٥٠ (٤٣) .

ثالثا ـ تبني الدول العربية رسميا ، وعلى أعلى المستويات وبأكبر كثافة من الجدية ، قرارا يسمح بعودة اليهود العرب الى الدول العربية ، كمواطنين أصيلين ، لا رعايا ، مع تمكينهم ـ ماديا ـ من اعادة بناء مستقبلهم في وطنهم الجديد ـ القديم وذلك بشد أزرهم عن طريق جهود « الوكالة العربية » التي تنشأ لهذه الاغراض (٤٤) .

رابعا ـ تمتين صلات الدول العربية بالاتحاد السوفياتي وتشجيعه ، بمختلف الوسائل ، على مقاومة الضغوط الصهيونية والغربية الموجهة اليه لفتح أبواب الهجرة على مصراعيها أمام اليهود السوفيات ، والسعي لدى الدولة السوفياتية من أجل اعادة اغلاق الباب نهائيا في وجه التأثيرات الصهيونية على المواطنين السوفيات ، وقبول اعادة اليهود السوفيات الذين اكتشفوا جوهر اسرائيل البشع فغادروها فعلا أو هم في طريقهم الى مغادرتها .

وبعد ، ان الدعوة الى عودة اليهود العرب من اسرائيل الى البقاع الاصلية التي سبق لهم وعاشوا فيها على امتداد رقعة الوطن العربي ، هي الوجه الآخر للدعوة الهادفة الى تنفيذ الهدف الاستراتيجي للثورة الفلسطينية والخاص باقامة الدولة العلمانية الديمقراطية في فلسطين. بل ان هذه الدعوة تشكل ركنا أساسيا من اركان الهدف الاستراتيجي للامة العربية الساعي الى اقامة الدولة العربية العلمانية الديمقراطية التي لا غنى عنها كبوتقة لصهر انسان الارض العربية في امة واحدة متلاحمة تقطع الطريق على كل محاولات الاستعمار القديمة ـ الجديدة التي طالما سعت الى تقطيع أوصال الامة العربية بسيف « التمايز الديني » حينا ، وبسيف « التمايز العرقي » حينا آخر . ولعل الانتصار الابرز ـ ان كان ثمة انتصارات أخرى ـ في تجربة « المسلخ اللبناني » الاخيرة هو انتصار صيغة « دولة كل الطوائف » على صيغة « دولة لكل طائفة » . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، لا تشكل الخطة الخاصة باعادة اليهود العرب الى مواطنهم الاصلية ، على عظمها واهميتها ، الا تحديا فرعيا أمام الامة العربية . أما التحدي الرئيسي فهو في انه لن يكون للخطة المبينة أعلاه اية قيمة ما لم يقتنع قادة اسرائيل والعالم بأن اسرائيل وجدت لتزول . وهم لن يقتنعوا طالما ان نار الجبهات العربية ، باستثناء الجبهة الفلسطينية ، غير مشتعلة . كما لن يكون للخطة ذاتها أية قيمة ان لم تواكبها خطة اقتصادية وسياسية واجتماعية شاملة لتعزيز مواطنية العرب الفيئين (يهودا وغير يهود) وتمهيد الطريق ليس أمام عودة العرب (اليهود فحسب) ، بل واقناع العرب (من غير اليهود) بالبقاء في وطنهم أولا ، وتمهيد الطريق امام عودة العرب المهاجرين (من غير اليهود) الى بلادهم ثانيا . وهنا بالذات يكمن التحدي الحقيقي الذي يواجه أمتنا العربية .

أسعد عبد الرحمن
جامعة الكويت

الحواشي

١ ـ أنظر صحيفة « القبس » الكويتية في ٢٢ ـ ٢ ـ ١٩٧٦ ، ص ١ و ١٦ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٦ .

٣ ـ كما جاء في مقالة اللواء كمال عبد الحميد « لا .. لهذه الاسباب » ، « القبس » في ١ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .

٤ ـ أنظر دراسة أبو مازن ، عضو اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني ـ فتح « الصهيونية .. بداية ونهاية » (مكتب التعبئة والتنظيم في حركة فتح ١ ـ ١ ـ ١٩٧٦) .

٥ ـ من نوع الندوة الخاصة التي عقدها أبو مازن ، احد قياديي فتح ، مع عدد من الشخصيات الاعلامية الفلسطينية والعربية بمقر منظمة التحرير الفلسطينية في الكويت في شهر شباط (فبراير) ١٩٧٦ . وكذلك الندوة العامة التي عقدت بدعوة من الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ـ فرع الكويت بتاريخ ١٦ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ والتي اشترك فيها كل من : الدكتور هاني فارس والدكتور اسعد عبد الرحمن (مؤيدان لفكرة عودة اليهود العرب) والدكتور ابراهيم مكي واللواء كمال عبد الحميد (معارضان) ، وقد أدار الندوة وساهم فيها الاستاذ خالد الحسن احد قادة فتح . أنظر تفاصيل الندوة في « القبس » بتاريخ ١٧ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .

٦ ـ فقد شكلت لجنة متابعة في الكويت ، مثلا .

٧ ـ أنظر صحيفة « القبس » بدءا من ٢١ ـ ٢ ـ ١٩٧٦ وحتى ٢٠ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ على سبيل المثال .

٨ ـ ومن الامثلة على هذه الاراء ، انظر مقالات مؤيدي الفكرة :
أ ـ توفيق ابو بكر « نعم لهذه الاسباب » ، «القبس» في ٢٨ و ٢٩ ـ ٢ ـ ١٩٧٦ .
ب ـ د. اسعد عبد الرحمن ، « التحدي الفرعي والتحدي الرئيسي » ، المصدر السابق ، في ٣ و ٤ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .
ج ـ حسين خليل ، « نعم .. لاسباب قومية وانسانية » المصدر السابق ، في ٩ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .
د ـ حسين أبو النمل ، « العودة .. والتصعيد العسكري » ،

المصدر السابق ، في ١٢ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .

اما المقالات المعارضة فهي :

أ ـ اللواء كمال عبد الحميد ، « لا .. لهذه الاسباب » ، « القبس » في ١ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .

ب ـ فتحي الحديدي ، « لا لعودة الجواسيس » ، المصدر السابق ، في ٢ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .

ج ـ د. ابراهيم مكي ، « لا نضيفوا الى أخطائنا خطأ جديدا » ، المصدر السابق ، في ٦ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .

د ـ د. حسين مؤنس ، « اذا عادوا .. سيشربون النفط حتى آخر قطرة » ، المصدر السابق ، في ٧ ـ ٣ ـ ١٩٧٦

اما مقالة د. عزيز شكري فكانت مقارنة بين بينية يصعب تصنيفها. انظر : « ذاتيا : نعم ، واقعيا : المسألة غير مطروحة » ، المصدر السابق ، في ٨ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ .

٩ ـ انظر عبد الحفيظ محارب ، « الهجرة الى اسرائيل : مشاكلها وكيفية التصدي لها » ، « شؤون فلسطينية » (العدد ١٠ ، ١٩٧٢) ، ص ٥٣ . كذلك : مصطفى عبد العزيز ، « اسرائيل ويهود العالم : دراسة سياسية وقانونية » (بيروت ـ مركز الابحاث ، ١٩٦٠) ، ص ١١٧ ـ ١١٨ .

١٠ ـ عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

١١ ـ عبد الحفيظ محارب ، المصدر السابق ، ص ٥٤ .

١٢ ـ المصدر السابق ، ص ٥٣ . كذلك : عبد الحفيظ محارب « اليسار الاسرائيلي الجديد (سيح) » ، « شؤون فلسطينية » ، (العدد ١٩ ، ١٩٧٣) ص ٦٤ .

١٣ ـ كما ورد في : عبد الحفيظ محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ٥٥ ـ ٥٦ . كذلك : أحمد حجاج ، « سكان اسرائيل : تحليل وتنبؤات » (بيروت ـ مركز الابحاث ، ١٩٦٨) ، ص ٨٥ .

١٤ ـ كما جاء في المصادر التالية : محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ٦٢ ـ ٦٦ . كذلك : عودة أبو ردينة « اليهود الشرقيون في اسرائيل » ، « شؤون فلسطينية » (العدد ٤ ، ١٩٧١ ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٥ . أيضا : عبد الحفيظ محارب ، « الهوة الاجتماعية في اسرائيل » « شؤون فلسطينية » (العدد ١٥ ، ١٩٧٢) ص ٣٧ ـ ٤٣ .

١٥ ـ التعبير مستعار من دراسة عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ١١٨ .

١٦ ـ انظر : ابو مازن ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .

١٧ ـ المقصود الهجرة المعاكسة من اسرائيل ورجحان كفتها على الهجرة الى الدولة الصهيونية في العام ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ . انظر : حجاج ، المصدر السابق ، ص ٢٩ و ٧٠ ـ ٧١ .

١٨ جميع الذرائع المتضمنة في هذا القسم مستقاة من المقالات التي كتبت ضد عودة اليهود العرب علاوة على مقالة د. عزيز شكري الآنفة الذكر . انظر حاشية رقم ٨ .

١٩ ـ انظر : ابو مازن ، المصدر ذاته .

٢٠ ـ المصدر السابق ، ص ٤٤ .

٢١ ـ من أجل تفاصيل اكثر عن مضمون القبول والرفض حول مسألة عودة العرب اليهود ، انظر وقائع الندوة الخاصة بذلك والتي نشرت في « القبس » بتاريخ ١٧ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ ، ص ١١ .

٢٢ ـ انظر : محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ٥٧ .

٢٣ ـ المصدر السابق ، ص ٥٥ ـ ٥٧ . كذلك : عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

٢٤ ـ محارب ، المصدر السابق ، ص ٥٦ . كذلك : عبد القادر ياسين ، « عصبة مكافحة الصهيونية في العراق » ، « شؤون فلسطينية » (العدد ١٥ ، ١٩٧٢) ص ١٥٩ .

٢٥ ـ راجع : محارب ، المصدر السابق ، ص ٥٧ ـ ٥٨ . كذلك : حجاج ، المصدر السابق ، ص ٧٠ ـ ٧١ .

٢٦ ـ محارب ، المصدر السابق ، ص ٥٨ .

٢٧ ـ محارب ، « الهوة الاجتماعية في اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ٣٨ .

٢٨ ـ انظر : داوود تلحمي ، « بلجيكا : مؤتمر بروكسيل ويهود الاتحاد السوفياتي » ، « شؤون فلسطينية » (العدد ٢ ، ١٩٧١) ، ص ١٣٤ . كذلك : الدراسة التي أعدها د. صلاح دباغ بعنوان « الاتحاد السوفياتي وقضية فلسطين » (بيروت ـ مركز الابحاث ، ١٩٦٨) ، ص ٦٢ ـ ٦٥ .

٢٩ ـ المصدر السابق ، ص ٦١ ـ ٦٢ .

٣٠ ـ تلحمي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٦ . كذلك : محارب ، « اليسار الاسرائيلي الجديد » ، المصدر السابق ، ص ٦٤ .

٣١ ـ أبو ردينة ، المصدر السابق ، ص ٢٩٤ .

٣٢ ـ محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ٦٦ .

٣٣ ـ المصدر السابق ، ص ٥٨ ـ ٦٢ .

٣٤ ـ انظر المراجع التالية : المصدر السابق ، ص ٥٨ ـ ٥٩ . كذلك : مصطفى عبد العزيز ، « الاقلية اليهودية في الولايات المتحدة الاميركية » (بيروت ـ مركز الابحاث ، ١٩٦٨) ص ١٦٤ .

٣٥ ـ حول الازمة الاقتصادية في ١٩٥٢ ـ ١٩٥٤ انظر : حجاج ، المصدر السابق ، ص ٢٩ . وحول الازمة الثانية في ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧ راجع : محارب ، «الهجرة الى اسرائيل» ، المصدر السابق ، ص ٥٨ .

٣٦ ـ المصدر ذاته .

٣٧ ـ المصدر السابق ، ص ٦٢ ـ ٦٧ .

٣٨ ـ دباغ ، المصدر السابق ، ص ٦١ ـ ٦٢ .

٣٩ ـ عبد العزيز ، « اسرائيل ويهود العالم » ، ص ١٣ و ١٧٣ .

٤٠ ـ محارب ، المصدر السابق ، ص ٦٢ ـ ٦٥ .

٤١ ـ ابو ردينة ، المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .

٤٢ ـ انظر : محارب ، المصدر السابق ، ص ٥٧ و ٦٦ و ٦٥ . كذلك : عبد الحفيظ محارب « ظاهرة الفهود السود في اسرائيل : أسبابها وأصولها » ، شؤون فلسطينية » (العدد ٤ ، ١٩٧١) ، ص ١٥١ .

٤٣ ـ ياسين ، المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

٤٤ ـ تقتضي الاشارة الى ان اول من كتب حول هذا ، بحدود علم المؤلف ، هو عبد الحفيظ محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .